العلاقة بين الذوق والمصطلح النقدي في التراث النقدي العربي القديم

الدكتور :حسين لفته حافظ
مركز دراسات الكوفة

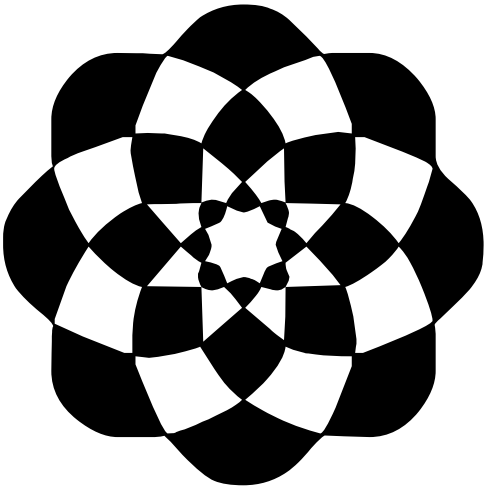

إضاءة

"إن أكثر ما يحتاج به في تحصيل العلوم المدونة والفنون المروجة إلى الأساتذة هو اشتباه الاصطلاح, فان لكل علم اصطلاحاً إذا لم يُعلم بذلك لا يتيسَّر للشارع فيه إلى الاهتداء سبيلا ولا إلى فهمه دليلاً "

كشاف اصطلاحات الفنون ١\١

المقدمة:

الحمد لله ربّ العلمين والصلاة والسلام على محمد الأمين وآل بيته الطيبين الطاهرين ,وبعد فهذا البحث كان حصيلة تفكير في أهمية الذوق لدى الناقد العربي في العصور الأولى من تاريخ النقد العربي القديم ,إذ كان الذوق حصيلة العلاقة بين المتلقي والشاعر في سبيل تحقيق التجربة الشعرية والجمالية معا,ومن ثم كان الذوق مدار اهتمام النقد الأدبي , فضلا عن هذا فان اللغة العربية تعد من اعرق اللغات وأدقها , لما تحتويه من كثرة في المفردات , وغزارة في المادة , وقد شرّفها الله سبحانه وتعالى من بين سائر اللغات الأخرى,بنزول قرآنه الكريم بها ,وقد وسعت آثار العرب العلمية والأدبية.

لقد شهد التاريخ النقدي وجود علماء اجلاء اسهموا في اغناء التراث النقدي من خلال المصطلحات النقدية التى اوجدوها بناء على الحاجة العلمية الى مثل تلك الاصطلاحات .

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث ان اجعله في مقدمة وثلاثة مباحث بحسب جهود العلماء في وضع المصطلحات ,الاول :ابتكار مصطلحات جديدة لمعاني جديدة , والثاني : جهود العلماء في الإشارة إلى معاني بعض المصطلحات, والثالث: إبقاء العلماء على المصطلحات القديمة التي وصلت إليهم من الموروث النقدي على حالها وإشاعتها بين الناس,وذلك بناء على طريقة تعامل العلماء والنقاد مع المصطلح النقدي .

أما المنهج الذي اتبعته الدراسة فقد تمثل بالمنهج الوصفي , والمنهج التاريخي الذي استطعنا من خلاله متابعة التطور الدلالي الذي طرأعلى المصطلح النقدي ,وذلك من خلال تحليل النصوص على وفق معطيات البحث النقدي مع الاستفادة من المعنى المعجمي الذي توفره المعاجم اللغوية.

وبعد, فلا يسعني في هذا المقام ,إلا أن أتوجه بالشكر إلى الله (عز وجل) الذي انعم علي, بان وفقني إلى أن أتم هذا العمل المتواضع , بالصورة التي هو عليها , وآمل أن تنال الرضا.

تمهيد (أهمية الذوق):

يكاد الشاعر في العصر الجاهلي أن يكون هو الناقد الأول للنص الإبداعي الذي يذيعه بين الناس, ومن ابرز صور هذا النقد الاهتمام باللفظ ,فقد عد القديم اللفظ ركنا مهما من أركان البناء الفني في الشعر والنثر على حد سواء , فمنذ ظهور الشعر العربي في العصر الجاهلي عرف العرب القدماء أهمية اللفظ ,وكان النقد الذوقي الأولي عند شعراء الجاهلية يميل إلى ملاحظة اللفظ , فقد برز في الجاهلية " نوعان من النقد مختلفان فالأول ينقد ألفاظا أو معاني جزئية , والثاني يفاضل بين الشعراء وبين مزاياهم وعيوبهم "[١].

وهذه العملية-عملية نقد النص الأدبي من الشعراء أنفسهم – والتقاليد الفنية للقصيدة الجاهلية من حيث مقدمة القصيدة , والرحلة على الناقة , ثم الانتقال إلى الغرض , هذا الهيكل الفني أصبح تقليدا فنيا وخاصة في الشعر الأموي فيما بعد ,أي ان مجرد استقرار هذا الفن ووصوله إلى العصر الإسلامي ,

يشجعنا على القول أن الذوق العام كان يستحسن مثل هذا التقليد الفني ,هذا الذوق العام دفع الشعراء إلى توحيد التقاليد الفنية , ولم تحصل حالة خروج على هذه التقاليد ولذلك اخذ الشاعر يستجيب لهذا الذوق .

وعلى الرغم من أن النقد الجاهلي لم يحدد مصطلحات معينة في هذا المجال , إلا انه دار حولها بصورة غير مباشرة ومن الأمثلة على ذلك , أن العرب عابوا على النابغة الذبيانى وبشر بن أبي خازم الإقواء الذي في شعرهما , أي اختلاف حركة الروي في القصيدة , ويرى الأستاذ طه احمد أن هذا الإقواء اثر من آثار طفولة الشعر, ودليل على أن العربي لم يهتد مرة واحدة إلى وحدة حركة الروي , فذمّه نوع من البصر بالشعر , وهو نوع من النقد قائم على وقع الشعر في السمع وعلى الانسجام والتماثل في القافية[٢] .

فالذوق في ذلك العصر هو الانطباع أي الاستجابة للقصيدة منذ الوهلة الأولى لسماعها , وهذه تشبه الاستجابة لـ (بيت القصيد) فالمتلقي يتأثر بهذا البيت منذ اللحظة الأولى التي يسمع فيها البيت ,إذا الذوق الذي كان سائدا في العصر الجاهلي حتما هو ذوق راقٍ لأنه شجع الشعراء على الاستمرار والشاعر هو الصوت الأول الذي كان ينطلق , وهو المبدع والعارف والواضع للغة ,ولا نستبعد أن نجد مفردات لا سابق لها إلا في شعر الشاعر الذي أوجدها, وكما حصل مع الشاعر عمرو بن احمر الباهلي ,الذي أوجد كلمات جديدة لم يسبق إليها نحو لفظة (ماموسة)الواردة في قوله :

تطايح الطلُّ عَن أردافِها صَعُدا كما تطايح عن مامُوسة الشَّرَرُ[٣]

وكلمة (بابوسة) في قوله :

حَنَّت قلوُصي الى بابوُسِها جَزعاً فما حنينك ام ما انتَ والذَّكرُ[٤]

وكلمة (بنَّس) في قوله :

ماريَّة لؤلُؤان اللَّون أوَّدَها طَلٌّ وَبنَّسَ عنها فَرْقَدُ خَصِرُ[٥]

لقد لفتت هذه الظاهرة انتباه ابن جني فيما بعد فقام بجمع ما تناثر في المعاجم اللغوية من الألفاظ التي ابتكرها الشاعر واستعملها لأول مرة تحت عنوان " باب في الشيء يسمع من العربي الفصيح لا يسمع من غيره "[٦], معللا سبب قبولها بقوله ان " القول في الكلم المقدم ذكرها وجوب قبولها وذلك لما ثبتت به الشهادة من فصاحة ابن احمر"[٧].

إلا انه قد تكون هذه الألفاظ غير شائعة في عصره , لذا قالو عنه جاء بالألفاظ الغريبة ومن خلال تعاقب الزمن شاعت هذه الألفاظ واخذ الشعراء الاحقون يستعملونها , وهذا يرجع الفضل فيه إلى الشاعر العارف .

إذا الذوق في ذلك العصر كان يتحسس مواطن الجمال , وهذا دفع الشعراء إلى التجويد والاهتمام بأشعارهم , وهناك من الشعراء من سمى قصائده بـ(الحوليات)[٨] أي القصائد والأشعار التي ينقحها أصحابها كثيرا ,ويتأكد الذوق في العصر الجاهلي من خلال قبول الأعمال الشعرية التي كانت تذاع في الأسواق وخاصة (سوق عكاظ) فهذا يستحسن والآخر يصيح اعد , وكلمات الإطراء كانت بمثابة حث الشاعر لان يكون أكثر إبداعا من خلال حرصه على سلامة النص ومدى قوته .

وقد حاول بعض العرب تفسير الإبداع في الشعر وذلك بنسبتة إلى القوى الخارقة أو القوى غير المرئية في المراحل الأولى يقول احد الشعراء :

إني وان كنت صغير السن وكان في العين نبو عني

فان شيطاني كبير الجن[٩]

ورأى بعض الدارسين أن في ربط العرب بين الشعر والجن دلالة نقدية ذوقية : وذلك عندما ينسب الشاعر أو السامع الشعر إلى الجن , وهو لا يؤمن بذلك على الحقيقة , وإنما يعبر عن إعجابه بالشعر لجودته وإبداعه , وعندما يستقبح شعر الشاعر يطعن بشيطانه ويذمه , فالربط بين الشعر والجن يدل على مواقف نقدية ذوقية إزاء الشعر والشاعر في حالي الجودة والرداءة[١٠] .

لقد كان الشعر الجاهلي من أكثر الظواهر الاجتماعية والثقافية التي تعبر عن حياة الجاهليين بما حققه من رقي في الشكل والمضمون معا ,فضلا عن هذا تتمثل عناية الجاهليين بإطلاق ألقاب بعينها على بعض الشعراء الكبار , وبعض القصائد , وهي ألقاب منتزعة من هذه الخصائص الفنية التي كان يمتاز بها شاعر من آخر وقصيدة من غيرها على نحو ما كان يراها الجاهليون ويحسونها فيما يلقى إليهم من شعر(١١).

ومن الظواهر النقدية التي تدلل على عمق ذوق الناقد في العصر الجاهلي الأسماء التي كانوا يطلقونها على الشعراء , وهي تعبر عن المهارة والإجادة الفنية عند ذلك الشاعر دون سواه ,فعدي بن زيد إنما لقب مهلهلا لطيب شعره ورقته , وقد كان احد من غنى العرب في شعره , وقيل انه أول من قصد القصائد وقال الغزل , فقيل "قد هلهل الشعر اى ارقه"(١٢).

وكان طفيل الغنوي من أوصف الشعراء للخيل "وكان أهل الجاهلية يسمونه المحبر لحسن شعره " (١٣), كما سمي المرقش بهذا الاسم لتحسينه شعره وتنميقه(١٤),وكان النمر بن تولب شاعرا جوادا , ولقب بالكيس لحسن شعره (١٥).

هذا الوصف للقصائد يصور ذوقا جماليا محددا تجاه هذه القصائد المعدودة التي ظفرت باهتمام الجاهليين وعنايتهم بروايتها , خاصة وان التجربة الشعرية الجاهلية قد وصلت إلينا ناضجة مكتملة تشير إلى قدرة إبداعية عالية ,كان وراءها حس مرهف ,مما أحال هذا الشعر سجلا وافيا لمفردات حياة العربي في ذلك الزمن.

لقد كان الشاعر يبذل جهدا في سبيل إنتاج نص شعري ينسجم والذوق السائد, لهذا قال المسيب بن علس عن قصيدته:

فلا هدينّ مع الرياح قصيدة منّي مغلغلة الى القعقاع ترد
المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثّل وسماع(١٦)

لاشك في أن في ذهن الشاعر أن الناس سوف يتمثلون القصيدة ومعانيها , وكأنه يمارس عملية النقد من خلال هذا التمثل .

ومن الجدير بالذكر أن نشأة المصطلح بدأت منذ العصر الجاهلي , فالمعروف أن المفردات اللغوية لها معنى في المعاجم , أما حينما تستعمل اللفظة للدلالة على معنى غير المعنى اللغوي مع وجود مشاكلة بين المعنيين سمي هذا الشيء بالاصطلاح , وعلى سبيل المثال , نحن نسمع بـ(الفحولة) وغيرها من المفردات التي شاعت في العصر الجاهلي , إلا أنها ترسخت في أذهان النقاد وأصبحت لها دلالة اصطلاحية نقدية, أي استعملت في المعنى الاصطلاحي , اذ ان فحول الشعراء اصطلاحاً هم "الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم، مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغُلِّب عليه فهو فحل مثل علقمة بن عبدة "(١٧)

فالفحولة انتقلت من دلالتها على الذكر من كل حيوان، أو من دلالتها على النجم سهيل، أو ذكر النخل، أو ما إلى ذلك مما أفادتنا به معاجم اللغة، إلى ميدان الشعر والشعراء، لتوصف بها طبقة من الشعراء تميزت من غيرها في ميدان الموهبة الشعرية والإبداع الشعري، وهذا يعني انزياحاً في الدلالة، وتحولاً في المفهوم اللغوي، وهذا التحول وذاك الانزياح لم يتأثرا بالبيئة بالبدوية المحيطة بالقوم آنذاك، أو يكونا نتاجاً لها فحسب(١٨) بل كانا كذلك متأثرين بالحياة الاجتماعية السائدة التي كان يُغَلَّبُ فيها دور الرجل على دور المرأة، ويُنظر فيها إلى المجتمع على أنه مجتمع ذكوري أبوي، يسيطر فيه الذكر على الأنثى في الكثير من مجالات الحياة المختلفة.

إلا أن البداية الحقيقية لوضع المصطلحات كانت مع ظهور الإسلام , فقد كان لظهوره الأثر الواضح في الاهتمام بالألفاظ والمصطلحات , إذ بدا الاهتمام ببعض الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم واختلف

الناس في معرفتها , فراحوا يلتمسون تلك المعرفة في نصوص ومرويات الشعر الجاهلي بوصفه كنز اللغة الأكبر ويؤكد ذلك قول ابن عباس (رضي الله عنه) "إذا سألتموني عن غريب القرآن ,فألتمسوه في الشعر , فان الشعر ديوان العرب"[١٩].

وقد نهض بهذه البداية الطيبة والمثمرة لجهود العلماء العرب في قضية المصطلح , نهض بها المتكلمون وأصحاب علوم القرآن , وقد أشار الجاحظ إلى هذه البداية في كتابه البيان والتبيين , وذلك في قوله:

"ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء , وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني , وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ,فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف , وقدوة لكل تابع"[٢٠].

ويبدو أن الدافع وراء هذا الوضع هو أن القرآن جاء بمعاني جديدة وهذه المعاني بحاجة إلى مصطلح مع المحافظة على المعنى الذي يربطه إلى أصله ,فالجاحظ يعرف أن وضع المصطلحات عملية اختيار للمعاني إن أخذت من لغة العرب , وهي إشارة من الجاحظ تؤكد معرفة العلماء العرب بما قام به أصحاب الفقه والمتكلمون في وضع المصطلحات الجديدة , ولقد زاد القرآن الكريم هذه اللغة ثراء بما طرحه من المعاني الجديدة وبما نقله من الألفاظ من معانيها الأصلية وجعلها معبرة عن المعاني الجديدة، وبذلك يكون القرآن قد أهَّلَ اللغة العربية لاستيعاب التعبير عن الحضارة الجديدة ذات المفاهيم الجديدة .

ويمكن لنا أن نجمل الحديث عن جهود العلماء في وضع المصطلحات في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول
ابتكار مصطلحات جديدة لمعاني جديدة

أي اختراع أسماء لما لم يكن معروفا كما فعل المتكلمون والنحويون وأصحاب العروض والحساب[٢١] , لاشك في أن جهود العلماء في وضع المصطلح هي جهود كبيرة , ونشير إلى الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) واضع علم العروض وهو علم جديد لم يسبق إليه , إذ وجد الخليل نفسه بحاجة إلى مسميات كثيرة ليدل بها على القافية ,فالمصطلحات التي تضمنتها دراسة العروض كلها من وضع الخليل وتلقيبه , فهو الذي سمى الأوزان بأسمائها ,ووضع للتفعيلات وأجزائها وعللها وزحافاتها ألقابا كالقبض والكف والخرم والثلم والجزء والخبن وغيرها.[٢٢]

يؤيد ذلك ما رواه المرزباني, روى أن الاخفش سأل الخليل"لم سميت الطويل طويلا :قال:لأنه تمت أجزاؤه ,قال فالبسيط؟ قال:لأنه انبسط عن مدى الطويل ,قال: فالمديد قال: لتمدد سباعيّه حول خماسيّه ,قال فالوافر: قال :لوفارة الأجزاء وتدا بوتد , قال :فالكامل ؟ قال : لان فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره ,قال : فالرجز؟ قال :لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة ,قال :فالرمل؟ قال لأنه يشبه رمل الحصير بضم بعضه إلى بعض ..."[٢٣] .

و)روى المرزباني أيضا أن الخليل قال :" رتبت البيت من الشعر ترتيب البيت من بيوت العرب الشعر – يريد الخباء- قال :فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة , كقول النابغة :

(عجلان ذا زاد وغير مزود)

ثم قال :

(وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ)

قال : فيروى أن النابغة فهم ذلك فغيره , قال :وإنما سميته إقواء لتخالفه ,لان العرب تقول :أقوى الفاتل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى ..."[٢٤]

ومن الباحثين من ذهب إلى أن الخليل مبتكر علم العروض, فقد وضع جميع مصطلحا ته ماعدا " القصيد والرجز والسجع والخطب والرويّ والقافية والبيت والمصراع"[٢٥] .

حقا إن أعمال الخليل وعظيم إبداعه في وضعه العروض كان مثيرا للإعجاب والإكبارفقد ظهر للناس بقواعده وظوابطه وألقابه ومصطلحا ته وبقي هذا العلم يدرس على الأسس التي وضعها له الخليل .

أما المصطلح الذي استعمله الخليل ليدل على النظام الذي وضعه وحصر به أوزان الشعر العربي فقد اختلفت التأويلات والتفسيرات فيه وفي سبب تسميته , فمن قائل انه سمي بالعروض تيمنا بمكة التي الهم الخليل فيها هذا العلم فهو من أسمائها , ومن قال :سمي وسط البيت من الشعر عروضا لان العروض وسط البيت من البناء كما جاء في قول الزجاج : "انه وسط البيت من البناء "[٢٦] .

إلا أن قول الخليل " والعروض عروض الشعر لان الشعر يعرض عليه ويجمع اعاريض وهو فواصل الإنصاف, والعروض تؤنث والتذكير جائز"[٢٧] , هو الأقرب من دلالة المصطلح, جاء في كتاب المعيار في أوزان الأشعار لأبي بكر الشنتريني :ان العرب" شبهت البيت من الشعر بالبيت من الشعر فاسموا آخر جزء من الشطر الأول من البيت عروضا تشبيها بعارضة الخباء وهي الخشبة المعترضة في وسطه ولذاك سمي هذا العلم عروضا لكثرة دوره فيه "[٢٨].

ومن الجدير بالذكر ان ظاهرة ابتكار المصطلحات النقدية استمرت بعد الخليل بن احمد حتى امتدت الى زمن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) فنجده يستعمل مصطلح (المعاني الأصلية) وهذا الاصطلاح من ابتكاراته ,وهو من الاصطلاحات المتصلة بالمعاني الشعرية , ويشير المصطلح لديه إلى دلالتين :

الأولى : المعاني الشعرية المؤثرة في نفوس الجمهور التي ترتبط بالأغراض المألوفة لدى عامة الناس , والتي تحدث فرحا او حزنا او شجوا لقيامها على التخييل والمحاكاة , يقول حازم في هذا الصدد "فما فطرت نفوس الجمهور على استشعار الفرح منه والحزن أو الشجو أو حصل لها ذلك بالعادة هو المعتمد في الأغراض المألوفة في الشعر والمبني عليه طرقها "[٢٩] .

الثانية :المعاني الشعرية التي تعبر عن الأفعال والقيم الأخلاقية والإنسانية الرفيعة في المدح , حيث يفرق حازم بين المعاني الأصيلة وغير الأصيلة في بابي المدح والذم [٣٠].

إذا حازم يؤكد على الأساس الأخلاقي الذي يقوم عليه شعر المديح , ولاحظ بعض الباحثين ان المعاني الشعرية الأصلية عند حازم إنما تكون أصيلة في المدح حينما تتعلق بالقيم الأخلاقية الرفيعة والفضائل والأفعال الإنسانية السامية[٣١] .

لقد نظر حازم إلى المصطلح النقدي على انه قضية أو أساس من أسس الإبداع الشعري ,ولهذا اتسم تناوله إياه بالعمق والشمول , ولهذا كان النقاد على وعي بأهمية المصطلح , ولذلك راحوا يقفون عنده منذ وقت مبكر , ونلاحظ ان التطور قد دخل قضية المصطلح بسبب تغير الواقع الثقافي العربي .

المبحث الثاني
جهود العلماء في الإشارة إلى معاني بعض المصطلحات

كان للعلماء جهود طيبة في الإشارة إلى معاني بعض المصطلحات من دون تسميتها بأسمائها نحو مصطلح (الغرض) .

فالغرض لغة : هو الهدف يرمى فيه ,وهو ما امتثلته للرمي ,أيا كانت طبيعة هذا الهدف , ومن قولهم : الناس أغراض المنية ,وجعله غرضا لشتمه[٣٢] , ومن ثم اتسع المعنى فصار يعنى القصد والبغية عامة(٣٣) ,و"جعل اسما لكل غاية يتحرى إدراكها "(٣٤) , ولا يعلم على وجه الدقة متى دخلت اللفظة إلى عالم الأدب , ومتى انتقلت إلى الطور الاصطلاحي ,فقد وردت في أبيات لأبي تمام مقترنة بذكر الشعر والمديح في قوله يمدح الواثق :

اهدي اليك الشعر كلَّ مفهمٍ خطلٍ وَسدّد فيك كلُّ عَبام
غرضُ المديح تقاربت آفاقه وَرمى فقرطس فيه غيرُ الرامي[٣٥]

ولكنها هنا تبدو اقرب إلى الدلالة اللغوية وأصداء التسديد والرمي منها إلى المصطلح وان اقترنت بذكر المديح[٣٦] .

ومن الباحثين من لاحظ أن هذه اللفظة تحركت بعد ذلك بخطوات أوسع نحو المجال الاصطلاحي, فإذا هي في مباحث نقادنا القدامى دالة على الموضوعات الشعرية الرئيسة :المديح, والهجاء,والفخر , والغزل,والرثاء..., ويبدو أن الغرض دالا على الموضوع الشعري ذو صلة بالهدف من الشعر أو الغاية التي يتوخاها أو النتيجة التي يتطلع إليها[٣٧] .

وقد وردت عند قدامة بن جعفر بهذه الدلالة الاصطلاحية في قوله :"اجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشعر المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه "[٣٨] .

ولعل السبب وراء عدم استقرار هذا المصطلح يكمن في كونه لم يكن الأوحد في الساحة الأدبية والنقدية - آنذاك- فثمة مصطلحات أخرى منافسة بديلة تقترب منه في دلالتها على الموضوعات الشعرية وترد في أقوال النقاد والأدباء , ومنها(الفن) و(الضرب)و(الصنف)و(النوع)و(المذهب)و(بيوتات الشعر)و(الأجناس), كانت تستعمل حينا بمعنى الغرض وتنصرف حينا آخر إلى معان أخر[٣٩].

وتحدث الجاحظ عن التحول الذي طرأ على الألفاظ بظهور الإسلام ,وأشار إلى ترك الناس لألفاظ كثيرة ,فمن ذلك تسميتهم للخراج (إتاوة)وكقولهم للرشوة ولما يأخذ السلطان (الحملان)و(المكس)والى استحداثهم ألفاظا لم تكن ,وإنما اشتقت من أسماء أو ألفاظ متقدمة على التشبيه والمجاز مثل قولهم لمن أدرك الإسلام (مخضرم) وللأرض التي لم تحفر ولم تحرث إذا فعل بها ذلك (مظلومة) [٤٠].

لقد غرست الحضارة الإسلامية في أعماق الإنسان مفاهيم جديدة في العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق مما لم يألفه العرب في جاهليتهم , ومن الطبيعي أن تتطلب هذه الحضارة الإسلامية مادة لغوية جديدة تغاير معاني الألفاظ المعهودة قبل الإسلام للتعبير عن المعاني الجديدة تستمد معانيها من لغة القرآن والأحاديث النبوية , وهكذا نشأت طائفة من المفردات الإسلامية سماها العلماء بعد ذلك المصطلحات الإسلامية.

المبحث الثالث

إبقاء العلماء على المصطلحات القديمة التي وصلت إليهم على حالها وإشاعتها بين الناس

عمل العلماء على إبقاء بعض المصطلحات القديمة التي وصلت إليهم على حالها الذي وصلت عليه ومن تلك المصطلحات مصطلح (القصيدة), ومصطلح (السرقة) و(الفحولة) وسنتكلم بشيء من التفصيل على مصطلح الفحولة.

فالفحل :الذكر من كلّ حيوان[٤١] ,وفحل ابلة فحلا كريما اختار لها ,وافتحل الإبل أرسل فيها فحلا ,وفحل فحيل :كريم منجب ,والفحل سهيل لاعتزاله النجوم[٤٢], قال لبيد بن ربيعة العامري:

أو ملمعُ وسقت لأحقب لاحه طردُ الفحول وضربَها وَكدامها[٤٣]

ومن الملاحظ أن لفظة الفحل ترتبط بذكر الإبل ودخلت لفظة الفحل ميدان الأدب ووصف بها النقاد كل شاعر متميز بمزايا معينة, وكانت اغلب أوصاف النقاد تستمد من البيئة التي يعيشونها "وكان لكل أدب ونقد في هذه البيئات لون خاص متأثر بالحالة الاجتماعية والبيئة الطبيعة"(٤٤).

ومن الباحثين من ذهب إلى أن موجودات الصحراء قد انتقلت إلى ذهن الناقد العربي فاستعان بها وأصدر من خلالها أحكامه تبعا للذوق العام الذي اعتمد القوة والجمال معيارا لتقويم الشعر (٤٥) .

ولعل من أوائل النقاد الذين انساب مصطلح الفحولة في نقد الشعر على ألسنتهم أبا عمرو بن العلاء (ت١٨٥هـ)فقد ورد استعماله في كتاب (فحولة الشعراء) في قول الأصمعي "سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول :قصيدته(٤٦) التي على الراء ألحقته بالفحول :

ألا بَان الخَليط ولمْ يزاروا وَقلبك في الظعائن مُستعار"(٤٧)

ويبدو أن المصطلح يدل على أن الفحول هم المتقدمون من الشعراء في قول الشعر , والذين نالت شاعريتهم درجة الاكتمال والنضج, ومن ثم فان فكرة القوة والغلبة شغلت أذهان النقاد فكانت اغلب مصطلحاتهم تعبر عن تلك الدلالات مثل المصلي: وهو الذي بعد السابق من الخيل(٤٨) , والسكيت:وهو الذي يجيء آخر الخيل في السباق(٤٩) , والخنذيذ :الفحل التام(٥٠).

اى أن مصطلح الفحولة يمكن أن يعكس "ما يسمى بالصورة المثلى أو الفضلى للشعر لدى كل من الشعراء أو النقاد على حد سواء"(٥١).

إن الذوق المدرب الخبير الذي تدعمه الثقافة العميقة ,المتأنية المستوعبة لشتى أنواع المعارف والفنون بشكل عام والمعارف النقدية بشكل خاص تتولد لديه القدرة على إصدار الحكم النقدي الفني الذي يفسر العمل الأدبي تفسيرا ناضجا متكاملا.

ومن الباحثين من حاول أن يبين المدى الذي يستجيب فيه الأدب ويخضع للقاعدة والتحديد,فالإنسان وان نجح في مجالات متنوعة كالعلوم , فهو مازال يعثر في تحديده لبعض قضايا الإنسان والتعبير عنه , ومنها الأدب ومن الأدب النقد ,فليس بمقدور الناقد , وان بذل جهدا أن يحول الأدب إلى مسألة علمية , يمكن أن يزاولها من يتقن قوانينها , لان التذوق الأدبي جزء من ممارسيه ,يتكون طبقا لمسببات منها :البيئة,والثقافة ,والتجربة,والموهبة وعوامل أخرى فاعلة في حياة الإنسان مؤثرة في مجراها منفعلة بطاقاته وأعماله(٥٢) .

إذا استطاع النقاد الأوائل - على الرغم من حداثة التجربة النقدية لديهم - أن يستنبطوا بعض المصطلحات النقدية التي اعتمدوا عليها في دراستهم للشعر، والحكم على الشعراء، وإنزالهم في المراتب التي يستحقونها، من حيث جودة أشعارهم أو رداءتها.

ولعل من الأمثلة الدالة على قدرة النقاد على استنباط المصطلحات النقدية ,استعارة ثعلب (ت٢٩١هـ) مصطلحه النقدي من الخيل حين جعل الأبيات غرّاء ومحجلة ومرجلة , ومصطلح (عمود الشعر) الذي أطلقه الآمدي(ت٣٧٠هـ) لأول مرة وثيق الصلة ببيت البدوي .

وقد كان للاتصال والاحتكاك بتراث الأمم الأخرى , وبخاصة التراث اليوناني أثره في الثقافة العربية الإسلامية , فاخذ النقاد والبلاغيون منذ القرن الثالث للهجرة في وضع المصطلحات النقدية والبلاغية , وكان للجاحظ(ت٢٥٥هـ) السبق في اختراع ووضع كثير من تلك المصطلحات , وتابعه ابن المعتز(٢٩٦هـ) في هذا المجال , الذي يشير الى سبقه في وضع اصطلاحات البديع حيث يقول :"ولعل بعض من قصر عن السبق الى تأليف هذا الكتاب ,ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمي فنا من فنون البديع بغير ماسميناه "(٥٣) .

وكان لقدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) الفضل في وضع كثير من المصطلحات النقدية والبلاغية التي استعارها من الفلسفة والمنطق نحو (صحة التقسيم وصحة المقابلات , وصحة التفسير , والتكافؤ ...)(٥٤)

.

وكان لحازم القرطاجني(ت٦٨٤هـ) إسهام فاعل في ابتكار كثير من المصطلحات النقدية على الظواهر الشعرية التي حاول تأصيلها , مثل التأنيس , والمراوحة , والإحالة (بمعنى الإشارة الى أحداث التاريخ)

, والاختلاف , والمنزع , والتدافع , والمحاكاة التامة , والمعاني الأصيلة والمعاني الدخيلة ,والمعاني الجمهورية [٥٥] .

الخاتمة

- كشفت الدراسة عن أن المصطلح وسيلة لسد حاجات العلماء والنقاد للتعبير عن المعاني الكثيرة والمتجددة, وكما حصل مع الخليل بن احمد الفراهيدي في تأسيسه لعلم العروض , ومن ثم كان للاصطلاح فضل في تدوين العلوم الإنسانية من نحو وعروض وبلاغة وغيرها.
- أكد البحث على قضية أن النقد الأدبي يعتمد بالدرجة الأولى على ذوق الناقد وفطنته مستندا إلى القواعد والقوانين العامة.
- ظهر من خلال الدراسة أن النقد الأدبي قائم على التذوق , وهذا هو اللون الذي تلونت به الأحكام النقدية في العصر الجاهلي ,وفى عصر صدر الإسلام , والعصر الأموي , لان النقد الذوقي في هذه الحقبة , وقف عند حدود تذوق العمل الفني والقول بجماله أو قبحه.
- ظهر ومن خلال البحث في تاريخ النقد الأدبي عند العرب أن هناك تأثيرا للواقع الذي يعيشه الناقد في ذوقه الأدبي وفي استعماله للمصطلح النقدي ,إذ كان للواقع الاجتماعي تأثير في نشوء وتطور المصطلح النقدي ,ولقد كان مصطلح الفحولة خير دليل على ذلك.
- كشف البحث عن تأثر المصطلح النقدي بعوامل عدة , منها التراث الوافد من الأمم الأخرى ,أمثال التراث اليوناني ,فضلا عن الحضارة الإسلامية المتمثلة بالقرآن الكريم ,حتى تسربت إلى النقد الأدبي اصطلاحات فلسفية اختلف موقف الأدباء تجاهها بين مؤيد ورافض لها .
- لاحظ الباحث أن الاصطلاحات الغريبة مظهر من مظاهر الحياة الفكرية عند العرب ,وان استعمال الناقد للاصطلاحات ضرورة استدعتها طبيعة الحياة المتجددة ,وهي عامل أساس في توسيع حضارة الإسلام وفي التلاقح الحضاري بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى.

قائمة المصادر:

القرآن الكريم

١- الإبداع الشعري في النقد العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري ,ثائر حسن جاسم ,دار الرائد العربي ,بيروت –لبنان,١٩٨٥م.
٢- أصول الأدب ,احمد حسن الزيات,مطبعة الرسالة,١٩٤٦م.
٣- الأغاني, أبو الفرج الاصفهاني(ت٣٥٦ه),تحقيق:علي السباعي,وعبد الكريم الغرباوي, ومحمد غنيم,بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم, الهيئة العامة للكتاب ,١٩٧٣م.
٤- البديع ,عبدالله بن المعتز (ت٢٩٦هـ),تحقيق : اغناطيوس كراتشقوفسكي , دار الحكمة, دمشق ,(د.ت).
٥- البيان والتبيين ,أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ,تحقيق:عبد السلام محمد هارون,مكتبة الخانجي,مطبعة المدني , المؤسسة السعودية بمصر ,القاهرة ,ط٥،١٩٨٥م.

٦- تاج العروس من جواهر القاموس,السيد محمد مرتضى الحسيني الزّبيدي(ت)عبد الستار فراج, دار إحياء التراث العربي ,القاهرة,١٩٦٥م.
٧- تأريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ,طه احمد إبراهيم,دار القلم,بيروت – لبنان,ط١،١٩٨٨م.
٨- تطور المصطلح النقدي العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري , هاني إبراهيم عاشور , رسالة ماجستير , كلية الآداب , جامعة بغداد,١٩٩٧م.
٩- الجامع لأحكام القرآن المعروف ب(تفسير القرطبي), محمد بن احمد بن أبي بكر (ت٦٧١ه),تحقيق:احمد عبد العليم البردوني , مطبعة دار الشعب – القاهرة, ط٢, ١٣٧٢هـ
١٠- الحيوان, أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ, تحقيق:عبد السلام محمد هارون , مصر, ط١،١٩٤٠م.
١١- ديوان أبي تمام,بشرح الخطيب التبريزي(٥٠٢هـ),,تحقيق:محمد عبده عزام, دار المعارف, مصر (د.ت).
١٢- شرح القصائد العشر,الخطيب التبريزي(٥٠٢هـ),تحقيق:الدكتور فخر الدين قباوة,منشورات دار الآفاق الجديدة,بيروت , ط ,١٩٧٩م.
١٣- شعر عمرو بن بحر الباهلي ,تحقيق:الدكتور حسين عطوان,مطبوعات مجمع اللغة العربية,دمشق,(د.ت).
١٤- الشعر والشعراء,ابن قتيبة(٢٧٦هـ)تحقيق:احمد محمد شاكر,دار المعارف بمصر,١٩٧٦م.
١٥- طبقات فحول الشعراء,محمد بن سلام الجمحي(٢٣٢هـ),تحقيق:محمود محمد شاكر,مطبعة المدني,القاهرة,١٩٧٤م.
١٦- عبقري من البصرة,الدكتور مهدي المخزومي,دار الرائد العربي,(د.ت).
١٧- العقد الفريد,الفقيه احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (ت٣٢٨هـ),تحقيق:الدكتور مفيد محمد قميحة,والدكتور عبد المجيد الترحيني,دار الكتب العلمية,بيروت –لبنان,ط٣, ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ,أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ), تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد ,دار الجيل ,بيروت, ط٤, ١٩٧٢م.
١٩- العين, أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ),تحقيق: الدكتور:مهدي المخزومي, والدكتور إبراهيم السامرائي,وزارة الثقافة والإعلام, الجمهورية العراقية,دار الرشيد,١٩٨٠م.
٢٠- الغرض الشعري دراسة نقدية,الدكتورة نادية غازي جبر,رسالة دكتوراه ,كلية الآداب,جامعة بغداد,١٩٩٤م.
٢١- فحولة الشعراء,عبد الملك بن قريب الأصمعي(ت٢١٦هـ),تحقيق:ش.توري,دار الكتاب الجديد,ط١, ١٩٧١م.
٢٢- قراءة جديدة لتراثنا النقدي , د. عبدالله سالم المعطاني, النادي الأدبي الثقافي ,جدة , ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢٣- قضايا الشعر في النقد العربي,الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد,دار العودة ,بيروت,(د.ت).
٢٤- كشاف اصطلاحات الفنون,محمد علي الفاروقي التهانوي, حققه: الدكتور لطفي عبد البديع , ترجم النصوص الفارسية:الدكتور عبد النعيم محمد حسنين, راجعه:أمين الخولي ,المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر,القاهرة,١٩٦٣م.
٢٥- لسان العرب, جمال الدين ابن منظور(ت٧١١هـ), تحقيق:أمين محمد عبد الوهاب, ومحمد الصادق العبيدي|,دار إحياء التراث العربي, بيروت- لبنان,ط٣, (د.ت).
٢٦- مصطلحات نقدية أصولها وتطورها إلى نهاية القرن السابع للهجرة, خير الله على السعدانى, رسالة ماجستير,كلية الآداب جامعة بغداد,١٩٧٤م.

٢٧- المصطلح النقدي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء, زيد قاسم ثابت ,رسالة ماجستير ,جامعة الموصل , كلية التربية ,١٩٩٨م .
٢٨- المصطلح النقدي في نقد الشعر: إدريس الناقوري ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس ـ ليبيا ـ ط٢, ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٨٤م.
٢٩- معجم النقد العربي القديم,الدكتور احمد مطلوب ,دار الشؤون الثقافية,بغداد,ط١, ١٩٨٩م.
٣٠- المفضليات,مختارات العلامة أبي العباس المفضل بن محمد الضبي,تحقيق:الدكتور عمر فاروق الطباع,دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة , بيروت ـلبنان,ط١, ١٩٩٨م.
٣١- مقدمة في علم المصطلح,علي القاسمي,الموسوعة الصغيرة,دار الشؤون الثقافية,بغداد,١٩٨٥م.
٣٢- الموشح(مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر) لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني(ت٣٨٤هـ) تحقيق:على محمد البجاوي,دار نهضة مصر,١٩٦٥م.
٣٣- منهاج البلغاء وسراج الادباء ,ابن الحسن حازم القرطاجني(٦٨٤هـ) تحقيق :محمد الحبيب ابن الخوجة , دار الكتب الشرقية – تونس ,١٩٦٦م .
٣٤- النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري,الدكتورة هند حسين طه, وزارة الثقافة والأعلام, الجمهورية العراقية,دار الرشيد للنشر ,المطبعة الوطنية ,عمان-الأردن,١٩٨١م.
٣٥- النقد الأدبي, احمد أمين,دار الكاتب العربي, بيروت ,ط٤،١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
٣٦- النقد البلاغي عند العرب إلى نهاية القرن السابع للهجرة,عبد الهادي خضير نيشان,رسالة دكتوراه,كلية الآداب , جامعة بغداد,١٩٨٩م.
٣٧- نقد الشعر,أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) ,تحقيق:كمال مصطفى, مصر,ط١, (د.ت) .
٣٨- نور القبس , المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء ,لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني,اختصار أبي المحاسن يوسف بن احمد بن محمود الحافظ,تحقيق:رودلفزلهايم,دار النشر,فرانتس تستايز,١٩٦٤م.
٣٩- الوساطة بين المتنبي وخصومه,على بن عبد العزيز الجرجاني(ت٣٩٢هـ),تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم ,وعلى محمد البجاوي,دار إحياء الكتب العربية, القاهرة,١٩٦٦م.

الهوامش:

(١) – النقد الأدبي (احمد أمين): ٤٤٨ .
(٢)- ظ: تاريخ النقد الأدبي عند العرب :٢١ .
(٣)- الديوان :١٠٠, تطايح الطل :أي تناثرت قطراته عن ظهرها, ماموسة: النار, ظ: الخصائص ٢٣/٢,و اللسان ١٠٨/٨.
(٤) - الديوان: ١٠٢, والقلوص الناقة الفتيه, والبابوس:حوار الناقة اى ولدها,ظ: اللسان:٣٢١/٧.
(٥) – الديوان:٩٧,والمارية :البقرة الوحشية,لؤلؤان اللون: براقته , وبنس:تأخر عنها ولدها الذي لحقه البرد, ظ: اللسان:١٤٥/١.
(٦) - ظ: الخصائص ٢١/٢.
(٧) - ظ: م.ن:٢/ ٢٤. لقد لاحظ الدكتور حسين عطوان أن العلماء واللغويين وجدوا في شعر الباهلي مادة غزيرة يحتجون بها على معاني بعض الألفاظ الغريبة والمعاني النادرة. ظ: شعر عمرو بن احمر الباهلي/٣٣.
(٨) - فقد كانوا يسمون القصائد التي ذاعت واشتهرت بأسماء تصور إعجابهم بها وإجادة أصحابها في نظمها مثل اليتيمة والمنصفة والسموط والمحكمات والمنقحات , ظ : البيان والتبين٢١/١.
(٩) - ظ: الحيوان:٢٢٩/٦.
(١٠) - ظ: الإبداع الشعري في النقد العربي :٤٦ وما بعدها.
(١١) - ظ: قضايا الشعر في النقد العربي :١٣٠.
(١٢) - ظ: الأغاني :٤٧/٥-٤٩, والعمدة :٨٦/١.
(١٣) - ظ :الشعر والشعراء:٤٥٢/١, والأغاني:١٨١/١٥.
(١٤) - المفضليات:٤١, ٤٨٥

(١٥) - ظ: الشعر والشعراء:٣٠٩/١,والأغاني:٢٨٧/٢٢, فصل الدكتور فضل ناصر الحديث عن هذا الموضوع في رسالته الموسومة بـ(نقد النص الأدبي حتى نهاية العصر الأموي).
(١٦) - البيت في الديوان :٢٢.
(١٧) -المصطلح النقدي في نقد الشعر: ٣٦٤ ، وانظر كذلك لسان العرب/ مادة فحل.
(١٨) -للاستزادة عن هذا الموضوع، انظر بحث الدكتور عبد الله سالم المعطاني "أثر البيئة في المصطلح النقدي القديم" المنشور ضمن كتاب "قراءة جديدة لتراثنا النقدي": ١/ ٢٢٧ ــ ٢٤٣ الصادر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٤١٠ هـ ــ ١٩٩٠م.
(١٩) – الجامع لأحكام القرآن:٢٤/١.
(٢٠) – البيان والتبيين:١٣٩/١.
(٢١) - ظ: معجم النقد العربي:١٩/١, ويذهب الدكتور احمد مطلوب إلى أن"وضع المصطلح مباح للعلماء ,ومطلق لكل من احتاج إلى تسمية شيء ليعرف به" معجم النقد العربي :١٩/١.
(٢٢) – ظ : عبقري من البصرة:٩٧.
(٢٣) – نور القبس:٧١.
(٢٤) - الموشح:٢١.
(٢٥) - تاريخ الأدب العربي:١٣١/٢.
(٢٦)- ظ : مادة(عرض) في كتاب العين ٢٧٥/١, والقاموس المحيط .
(٢٧)- كتاب العين مادة (عرض): ٢٧٥/١ .
(٢٨)- المعيار في أوزان الأشعار : ١٢.
(٢٩) – منهاج البلغاء :٢٢ .
(٣٠) - م . ن : ١٦٢ .
(٣١) – ظ: المصطلح النقدي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء :٢٢٣ .
(٣٢) – ظ: تاج العروس من جواهر القاموس:٤٥١/١٨.
(٣٣) – م . ن :٤٥٨/١٨.
(٣٤) - م . ن :٤٥١/١٨.
(٣٥) - ظ: ديوان أبي تمام,بشرح الصولي: ٣٦٩/٢. ومفهه: العيي الكليل اللسان, العبام : الأحمق الذي لا عقل ولا أدب ولا شجاعة له, قرطس : أصاب الرمية.
(٣٦) – ظ: مصطلحات نقدية أصولها وتطورها إلى نهاية القرن السابع للهجرة:١٩١.
(٣٧) - ظ:الغرض الشعري دراسة نقدية:٩.
(٣٨) - نقد الشعر /٩١.
(٣٩) – ظ: مصطلحات نقدية :١٨٣-١٩٥،١٨٩-١٩٩،١٩٧-٢٠١,والغرض الشعري دراسة نقدية : ١٠ ومابعدها , فهناك معاني تفصيلية لتلك الاصطلاحات وردت في هذه الدراسة.
(٤٠) – ظ: الحيوان:٣٢٧/١-٣٣٦, ٣٤٧-٣٤٨, ومعجم النقد العربي القديم:١٢/١.
(٤١) - اللسان مادة(فحل) .
(٤٢) - القاموس مادة(فحل) .
(٤٣) - البيت في الديوان: ٢٢ ,وينظر: شرح المعلقات العشر:١٢٦.
(٤٤) - النقد الأدبي :٤٥٠.
(٤٥) - ظ: تطور المصطلح النقدي العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري:١٥٥.
(٤٦) - والبيت من قصيدة رائية مشهورة للشاعر بشر بن أبي خازم , ولاشك في أن جودة هذه القصيدة كانت من الأسباب التي ألحقت صاحبها بطبقة الفحول من الشعراء .
(٤٧)- فحولة الشعراء:٢٧.
(٤٨) - لسان العرب مادة(فحل).
(٤٩) - العقد الفريد:١٧٨/١.
(٥٠) - البيان والتبيين:١١/٢.
(٥١) - الفحولة مصطلح في نقد الشعر عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري:٦٨.

(٥٢) - المورد , جلال الخياط:١١.ويتفق علماء اللسانيات على أن من خصائص اللغة بوجه عام قدرتها على التطور والنمو ,وذلك باستعمال وسائل صرفية ونحوية لتوليد ألفاظ ومدلولات وتراكيب لغوية جديدة للتعبير عما يستجد من حاجات ومفاهيم في المجتمع : ظ: مقدمة في علم المصطلح:٩٥.

(٥٣) – البديع :٣ .

(٥٤) - ظ : نقد الشعر :٢٣-٢٤ .

(٥٥) - ظ : منهاج البلغاء : ١٧-٢٧ , والمصطلح النقدي في منهاج البلغاء :١٢ .